الفصل الرابع

أدبنا والحياة

من دمشق إلى بغداد

١ – فى معترك المذاهب وخضم الأحداث

٢ – مجرى التيار . . . . . .

obeikandl.com

obeikandl.com

فى معترك المذاهب وخِضم الأحداث

« وليس فى المولدين أشهرُ اسمًا من أبى نواس ثم حبيب والبحترى ، ويقال إنهما أخملا فى زمنهما خمسمائة شاعر ، كلهم مُجيد »

ابن رشيق : العمدة

obeikandl.com

obeikandl.com

أين مضت الحياة بالأدب بعد ذلك ، وماذا صنعت الأيام والليالى بأهله وصنعوا بها ؟

وما مصير تلك القيم والمقاييس التى تركها البيت الأموى قبل أن تعصف به رياح الأحداث ؟

لست أرانى قادرة هنا على أن أمضى فى تتبع ذلك كله ؛ بعد أن اتسعت آفاق الدولة الإسلامية ، وماجت بشتى التيارات المتدافعة آتية من شرق وغرب ، وحملت إليها الشعوب الطارئة على الإسلام كل تراثها الحضارى والمزاجى والعقلى .

لكنى أحاول مع ذلك كله ، أن ألقى نظرة عامة على فترة بعينها ، كانت مرحلة انتقال ، ريثما أخذ التطور مجراه .

وهى فترة تستغرق القرن الثانى كله وشطراً من القرن الثالث ، وفيها نلمح مسارب التيارات المختلفة ، ونستبين اتجاه مجراها الذى اندفعت فيه نحو المصير الذى قضت به سنة الحياة وحتمية التاريخ . . .

* * *

انتقل مقر الحكم من دمشق ، وأغلقت قصور أمرائها من بنى أمية ، فانفض عنهم مؤرخو الأدب ، وفتحوا صفحة جديدة لعصر أدبى جديد . . .

ولعلهم لو أنعموا النظر ، للمحوا بوادر الانقلاب العباسى من قبل أن يتم بسنين ، ولهداهم الاستقراء الواعى إلى نصوص من تراثنا ترصد نذر التحول وهى تتجمع على الأفق ، وتكشف عما تحت الرماد من وميض نارٍ توشك أن يكون لها ضرام !

الانقلاب لم يحدث بغتة ولا مصادفة ، وإنما سهر على إعداده أعداء البيت الأموى من شيعة وموالٍ ، وأطالوا التدبير له ، وأعان عليه من أعان من شعرائهم وخطبائهم ، ممن شُغِلَ عنهم مؤرخو الأدب بجرير والأخطل والفرزدق، وقلةٍ من شعراء الشيعة والموالى الذين اتصلت أسبابهم بالقصر مثل الكميت ، وابن قيس الرقيات.

فمنذ صيَّرت الأمويةُ الحكمَ وراثيًّا ، لم يهدأ بال الطالبيين ، وبسلاحها هذا حاربوها ليردوا الميراث إلى أصحابه من آل البيت . وقد ظلت دعوتهم تزلزل الأمويين ، لم يزدها التنكيل والمطاردة إلا ضراماً ، وإن اضطرها بعد عدد من المعارك الدامية ، إلى تستّرٍ ما كان ليفوت عينَ التاريخ الفاحصة .

ومن ناحية أخرى ، وليت الأموية الحكم ، وقد اتسعت الدولة بما ورثت من عروش الأكاسرة والأباطرة والفراعين ، وأظلت شعوبًا من أجناس شتّى ، لم تحاول الدولة العربية أن تتألفها أو تساعد على اندماجها فى المجتمع ، وأن تحكمها بروح التسامح والعدالة والمساواة ، على ما أمر به الإسلام .

كانت تنظر إليهم فى حذر وارتياب ، وتحاول أن تلزمهم مواضعَ بعينها لا يتجاوزونها ، حتّى لا يتغلغلوا فى المجتمع العربى ويصبغوه بصبغة أعجمية . ولم يكفِها فى ذلك أن عزلتْهم عن الشئون العامة وحرمت عليهم مناصب الدولة ، بل ألزمت الداخلين فى الإسلام منهم ، بالولاء لقبيلة عربية ! وربما حرمت عليهم الهجرة إلى حواضر الإسلام والسيادة العربية ، كما فعل « الحجاج » الذى لجأ فى بعض الأحيان إلى إعادتهم إلى قراهم بالقوة[1] .

ثم بلغ الأمر أقسى مداه ، حين أبقت الأمويةُ الجزيةَ على مَن أسلم من الموالى حتّى لا يُضارَّ بيتُ المال بازدياد الداخلين فى الإسلام ، يلتمسون ما أقره لهم من حق المساواة . وقد أبى « عمر بن عبد العزيز » أن يقر هذا الوضع الجائر المخالف لمبادئ الإسلام ، فكتب إلى واليه أن «ضع الجزيةَ عمن أسلم قبَّح اللهُ رأيك ، فإن الله بعث محمداً هاديًا ولم يبعثه جابيًا . ولعمرى لَعُمَرُ أهونُ عند الله من أن يدخل الناس الإسلامَ كلهم على يديه » .

لكن الأمر كان قد فسد ، بحيث لا يصلحه إجراء فردى لا يمثل سياسة الدولة ، موقوت بمدة خلافة عمر بن عبد العزيز .

واتسع الخرق على الراقع :

لم يكد « عمر » يمضى حتّى عادت الحال إلى مثل ما كانت عليه وأسوأ ،

---

(١) راجع حديث «فلهوزن» عن هذه الإجراءات وأثرها وصداها . فى كتاب « تاريخ الدولة العربية» ٢١٨ : ٣٠٠ من الترجمة العربية للدكتور أبو ريده .

وحتى كان الموالى قد تجمعوا فى شرق الدولة ، يأتمرون بها للقضاء عليها .

واستغرقت فترة التجمع ، ما بين عامى ١٠٠ ، ١٣٠ هـ .

وكانت خراسان مركز هذا التجمع للأعداء الذين ربتّهم الدولة فى أحضانها، على حد تعبير « ڤلهوزن »[١] .

وخراسان بعيدة عن الشام مركز الدولة العربية ، نائية عن دمشق حاضرة العروبة . وقد أسلم أهلها الفرس ، لكنهم لم يتخلوا قط عن ميراثهم وتقاليدهم ، بل استطاعوا أن يغلبوا مهاجرة العرب على أمرهم ، فكانوا — على ما روى الطبرى —[٢] يلبسون السراويل كما يلبسها أهل خراسان ويشربون النبيذ ، ويحتفلون بعيد النيروز والمهرجان ، وأخذ أشرافهم يظهرون بمظهر المرازبة وأسلوبهم فى الحياة . وامتد أثر الغزو المعنوى إلى العراق . . .

وتلقّف الخراسانيون الدعوةَ لآل البيت ، فعبأوا قواهم لنجاحها ، وكان منهم دُعاتُها فى المرحلة السرية ، وسيوفُها فى المعركة العلنية . لم يفعلوا ذلك حبًّا فى أصحاب الدعوة أو إيمانًا بحقهم ، ولكن نكاية فى الأموية التى أمعنت فى اضطهادهم وإذلالهم ، وليقيموا على أنقاض دولتها العربية ، دولة إسلامية جديدة تكون صنيعتهم . . .

ومن قبل ، تشيع الأعاجم للعلويين ، ليزلزلوا أمن الأموية . . .

ومن قديم بعيد ، لاحت بوادر الحركة ، فى مقتل أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » بطعنة من خنجر « أبى لؤلؤة المجوسى » ؛ وحملت فتنةُ « عبد الرحمن بن سبأ » شعارَ العلوية زيفاً وتضليلا ، وانضم الموالى إلى « عبد الرحمن بن الأشعث » فى ثورته .

أجل ، لاحت البوادر من قديم ، فى أعقاب الفتوح الإسلامية الظافرة ، لكن الحكم الإسلامى ، فى عهد الخلفاء الراشدين ، استطاع بسماحته أن يُلجم حركة الموالى ، ويكبح جماحها إلى حين ، فلما جاءت الأموية ، تأججت الجذوة الكامنة ، تحت ضغط الاضطهاد والتفرقة العنصرية .

---

(١) تاريخ الأمة العربية : ٤٧٢ الترجمة العربية للدكتور أبو ريده .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الثالث ٥١ : ٦٥ ط مصر .

وكان ما كان . . .

سقطت الدولة الأموية العربية ، لتفسح المجال لأملٍ فى إقامة دولةٍ إسلامية لا تتعصب لعربى على أعجمى .

دولة تنضوى تحت لوائها الشعوب الإسلامية ، ترجو أن يُظلها تسامحُ الإسلام وعدالته .

لكنَّ للنصر زهوَه وللسلطان غروره . .

وقد جاءت الدولة العباسية على أكتاف الفرس الأعاجم وبسيوفهم ، وهو ما لم يملك أمراء البيت العباسى إلا أن يعترفوا به ، فقال « داود بن على » لأهل الكوفة :

« يا أهل الكوفة ، إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح لنا شيعتنا من أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا »(١) .

وقال «أبو جعفر المنصور» لأهل خراسان : « يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا » .

وكان مما أوصى به — قبل وفاته — ابنَه المهدى : « وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم فى دولتك ، ودماءهم دونك . . . أن تحسن إليهم ، وتتجاوز عن مسيئهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف مَن مات منهم فى أهله وولده ! »(٢) .

وعلى العهد بالمؤرخين ، لم يحفلوا بغير الإرهاص الفنى المتصل بالسياسة كمثل قصيدة «نصر بن سيار» التى سيرها إلى القصر الأموى ملوِّحًا فيها بنذُرِ الخطر :

أرى تحت الرماد وميضَ نـــار ويوشـــك أن يكون لها ضرام

كما لم يحتفلوا ، بعد سقوط الأموية ، بمتابعة الأصداء الأدبية لسير الأحداث ، اللهم إلا ما اتصل منها بالسياسة . . .

فهم يروون مثلاً ، أبيات « بشار» يهجو المهدى العباسى ووزيره يعقوب بن داود :

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ٣/٢٦٢ ، ٢٦٣ ، والنهاية لابن الأثير ٥/٢٥٥ .

(٢) ابن الأثير : ٥/٢٩٥ ، ٢٣٦ ط مصر .

بنى أميةَ هُبُّوا طال نومُــكمُ ... إن الخليفة يعقوبُ بن داودِ
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا ... خليفة الله بين النايِ والعــود

ولكن « بنى أمية » لم يهبوا لأن زمانهم قد ولى ، وإنما مضت فلولهم إلى أقصى المغرب ، فأقامت هناك بالأندلس دولة أموية لا سبيل لبغداد إليها .

والذين لم يتح لهم الهروب ، ألح عليهم العباسيون حتى استأصلوا شأفتهم ، وكان نفر من الشعراء ، يحرضون عليهم ويغرون بهم ، على نحو ما فعل « سديف » حين دخل على أبي العباس السفاح ، وبقيةٌ من بنى أمية فى حضرته ، فأنشده بمسمع منهم :

لا يغرَّنْكَ ما ترى من رجــال ... إن تحت الضلوع داءً دويـّــا
فضع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرِها أمويــّا !

فاستجاب الخليفة لشاعره : ووضع السيف فى رقاب القوم ، حتى لا يرى أمويًّا فوق ظهر الأرض !

وخـَرِسَ الشعراء الذين عمر بهم البلاط الأموى وطاب مرعاهم فيه ، فلم يبق على الولاء لهم إلا قلة لم يشأ المؤرخون أن يذكروا من شعرها إلا ما وصل إلى سمع الخليفة ! منهم « أبو العباس الأعمى » الذى بقى وفيًّا لمروان بن محمد ، وقد التقى بالمنصور فى الطريق ، فدخل التاريخ بهذا اللقاء العابر !

وخبر التقائه بالمنصور ، رواه « المسعودى »[1] فقال : « حدّث على بن محمد المدائنى أن المنصور قال : صحبت رجلاً ضريراً إلى الشام ، وكان يريد مروان ابن محمد فى شعر قاله فيه ، فسألته أن ينشدنى فأنشد :

حين غابت بنو أميــةَ عنــه ... والبهاليلُ من بنى عبد شمسِ
خطبــاء على المنــابر فرســا ... ن عليها وقالــةٌ غــير خُرْسِ
لا يُعــابون قائلين وإن قــا ... لو أصابوا ولم يقولوا بلبس
وحُلوم إذا الحــلوم استُخِفــّت ... ووجوهٌ مثــل الدنانير مُلْسِ

« فوالله ما فرغ من شعره ، حتى ظننت أن العمى أدركنى ، وكان والله ممتع الحديث حسن الصحبة . . . وحججت سنة ١٤١ فنزلت على الحجاز فى جبلى

---

(١) مروج الذهب : ٢٠٩/٣ .

زرود ، أمشي لنذر كان عليّ ، فإذا أنا بالضرير ، فأومأت إلى من كان معى أنْ تأخروا . . ودنوتُ منه فأخذت بيده فسلمت عليه . فقال : من أنت جعلني الله فداك فما أثبتكَ معرفةً ؟ فقلت : رفيقك إلى الشام فى أيام بنى أمية وأنت متوجه إلى مروان . فسلم عليّ ، وتنفس ، وأنشأ يقول :

آمَتْ نساءُ بنى أميــة منهم وبناتُهم بمضيعــةٍ أيتــامُ
نامت جدودُهم وأسقِط نجمُهم والنجم يسقط والجدود نيام
خلت المنابرُ والأسِرَّةُ منهم فعليهمُ حتى الممات سلام !

. . . فقلت : أنا أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين ، فقال : يا أمير المؤمنين ، اعذر فإن ابن عمك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : " جُبِلت النفوسُ على حُبِّ من أحسن إليها وبغضٍ من أساء إليها " .

« فهممت والله به ، ثم تذكرت الحرمةَ والصحبة فقلت للمسيب : أطلقه . ثم بدا لى فى مسامرته رأى ، فأمرت بطلبه ، فكأن البيداء ابتلعته ! »

وابتلع الغمار القلة من مثله ، ممن ظلوا على الولاء للأموية . فلم يجدوا لهم فى العهد الجديد مكاناً . . .

وخفَت صوتُ الأموية ، وجلجل صوت العلوية ، احتجاجًا على غدر بنى عمهم ومكر حيلتهم ، حين دعوا سرًّا إلى رد الميراث إلى أصحابه من آل البيت ، فلما آن لهذه الدعوة أن تعلن ، فوجئ العلويون بأن « الإمام » الذى تمت له البيعة ، من البيت العباسى !

واحتدم بين الحزبين صراع خضَّب ساحة العراق والشام والحجاز ، بدماء العلويين ، سلالة الزهراء ، أحفاد النبي عليه الصلاة والسلام[1] .

وكانت « الوراثة » التى أدخلها الأمويون نظاما للحكم الإسلامى ، سلاحَ الفريقين فى المعركة :

العلوية تقول : إن بنى فاطمة بنت النبي ، أحق بميراث جدهم الرسول .

والعباسية تقول: إن العباس ، عم الرسول ووارثه ، يحجب ابن عمه عليًّا ، أما بُنوّةُ العلويين لفاطمة ، فلا تجعلهم ، وهم أبناءُ بِنت ، إلا من ذوى الأرحام !

(١) اقرأ فى هذا ، كتاب (مصارع الطالبيين) لأبى الفرج الأصبهانى .

والشعر يخوض المعركة ويلهب ضرامها .

وآذان مؤرخي الأدب ، تلتقط من ذلك كله ما يتصل بالسياسة وما ينشد في معترك أحزابها :

فبلسان العباسية ، يقول « مروان بن أبي حفصة » من قصيدته المشهورة التي مطلعها :

طرقتكَ زائرةٌ فحيِّ خيالها ... بيضاء تخلط بالجمال دلالَها

* * *

هل تطمسون من السماء نجومها ... بأكُفِّكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالة من ربكم ... جبريل بلَّغها النبي فقالها
شهدت من الأنفال آخرُ آية ... بتراثهم ، فأردتم إبطالها

ويقول للمهدي أيضًا :

يا ابنَ الذي ورث النبيَّ محمداً ... دون الأقارب من ذوي الأرحام
الوحيُ بين بني البنات وبينكم ... قطعُ الخصام، فلاتَ حينَ خصامِ
أنَّى يكون ، وليس ذاك بكائن ... لبني البنات وراثةُ الأعمام !

فيجيبه من الحزب العلوي « محمدُ بن أبي يحيي » :

لِمَ لا يكون وإنَّ ذاك لكائنٌ ... لبني البنات وراثةُ الأعمام
للبنتِ نصفٌ كامل من ماله ... والعمُّ متروك بغير سهام !

ويأخذ « منصور النمري » الكلمة فيقول للرشيد، مقرراً أن الخلافة كانت من البداية حقًّا للعباس عم النبي ، اغتصبه أبو بكر التيمي ، وعمر بن الخطاب من بني عدي ، وعثمان وبنو أمية ، وعلي بن أبي طالب :

يا ابن الأئمة من بعد النبي ويا ابـ ... ـنَ الأوصياء أقرَّ الناسُ أو دفعوا
إن الخلافة كانت إرثَ والدكم ... من دون تيم ، وعفوُ الله متسع
لولا عديٌّ وتيمٌ لم تكن وصلت ... إلى أميةَ تمريها وترتضع
وما لآل علي في إمارتكم ... وما لهم أبداً في إرثكم طمعُ
يا أيها الناس لا تعزبْ حلومُكمُ ... ولا تُضِفْكم إلى أكنافها البِدَعُ
العمُّ أولى من ابن العم فاستمعوا ... قولَ النصيحة إن الحق مستمَعُ

العم : العباس بن عبد المطلب وقد عاش بعد ابن أخيه محمد عليه الصلاة والسلام .
وابن العم : « على » مات والدُه أبو طالب قبل الهجرة بثلاث سنين .

وكما حدث أيام الأمويين ، حين اشتدت وطأة الرغبة أو الرهبة على شعراء فأنطقتهم بما لا يجدون ، نرى أمثالهم فى العصر العباسى ، قلوبُهم مع العلويين وألسنتُهم مع العباسيين ، وقد كان القصر — على العهد به — يحدد مجال القول للشعراء ويضع السيف والمال فى خدمة سياسته .

يروون من ذلك أن « أبان بن عبد الحميد » عتب على البرامكة ، أنْ لم يحققوا رجاءه فى الوصول إلى « الرشيد » فسألوه : وما تريد من ذلك ؟ أجاب : أريد أن أحظى منه بمثل ما يحظى مروانُ بن أبى حفصة . فقال له « الفضل بن يحيى البرمكى » معتذراً : إن لذلك مذهبًا فى هجاء آل أبى طالب وذمهم ، به يُحظَى وعليه يُعطَى ، فاسلكْه حتى نفعل ! قال : لا أستحلُّ ذلك .

قالوا : فما نصنع ؟ **لا يجئ** طلبُ الدنيا إلا بما لا يَحِلّ » !

فما لبث « أبان » أن خضع وقال :

نشدتُ بحق الله من كان مسلماً ... أعُمٌّ بما قد قلتُه العُجْمَ والعربْ
أعَمٌّ رسولِ الله أقربُ زُلفةً ... لديه ، أم ابنُ العم فى رتبة النسبْ
وأيهما أولى به وبعهده ... ومن ذا له حقُّ التراث بما وجب
فإن كان « عباسٌ » أحقَّ بنسلكم ... وكان «علىٌّ» بعد ذاك على سبَب
فأبناءُ عباسٍ هم يرثونه ... كما العمّ لابن العم فى الإرث قد حجَبْ

ففتحت له أبوابُ « الرشيدِ » وخزائنُه[1] .

* * *

بل كانوا كذلك شديدى الإدراك لخطر الشعر ، شديدى الحرص على أن يسلطوا سحره على وجدان العامة .

روى « المسعودى » أن الهيثم بن عدى قال : «كنت فى مجلس المهدى ،

---

(١) الأغانى : ٢٠/٧٥ .

فأتاه الحاجب فقال : ابنُ أبي حفصة بالباب . فقال : لا تأذن له فإنه منافق كذاب . فكلمه فيه بعض من بالمجلس ، فأذن له المهدى وابتدره قائلاً : يا فاسق ، ألست القائل فى "معن بن زائدة" :

جبـلٌ تلود بـه نـِزارٌ كلها صعبُ الذُّرَى مُتَمَنِّعُ الأركانِ !

قال مروان : بل أنا الذى أقول فيك يا أمير المؤمنين :

يا ابنَ الذى ورث النبي محمـداً دون الأقارب من ذوى الأرحام !

وأنشده الأبيات . فرضى عنه المهدى وأجازه »[١] .

ولا شيء من هذا بجديد ، لم تعرفه الحياة والأدب ، فى عصر بنى أمية !

* * *

والانقلاب العباسى ، لم يقض على الوضع الطبقى الذى عرفناه أيام الأموية ، بل استشرى هذا الوضع بحكم تدفق الثروات إلى مركز الخلافة ، فجذبت معها صنوفًا من الطامعين والمرتزقة والمغامرين ، وطلاب العلم أو النفوذ والمال . ولم تستطع الدولة الإسلامية — وما كان لها أن تستطيع بعد كل الذى كان — أن تنجو من هذا الوضع الطبقى المتصدع الذى تتبع الثروةُ فيه القوةَ ، ويستأثر بها آحاد معدودون ، والأقوياء يأكلون الضعفاء ، وما نجم عن هذا كله من آثار نعرفها فى تاريخنا ، ونراها — من بعيد — تشترك فى تقرير مصير تلك الدولة الإسلامية الكبرى .

والأدب ليس بمعزل عن الحياة ، وقد رصد ، ولا شك ، كل التيارات المتدافعة ، مؤثراً فى الأحداث ومتأثراً بها . ولكن عيون المؤرخين والنقاد شُدَّت إلى بغداد ، حتى بدا أنها كل الدنيا !

تمامًا كالذى حدث فى دمشق أيام الأموية .

ولا جديد فى هذا أيضًا ، وإنما هو القديم يزداد سيطرة واحتكامًا بازدياد ضراوة النفعية وتصدع الطبقية ، وتضخم الثروات ، وتدفق تيار الشعوبية الذى

---

(١) الأغانى : ٢٠/٧٥ .

obeikandi.com

حاولت الأموية أن تصده باضطهاد الموالى ، فلم تفلح . وفتحت له العباسية الباب على مصراعيه .

* * *

والشعوبية لم يَعُدْ يرضيها أن تتساوى بالعرب ، عملاً بالآية الكريمة :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

بل أرادت أن تستعيد أمجاد ماضيها وأن تطبع المجتمع الإسلامى بطابع حضارتها ، معتزة بما لها فى المدنية من تراث عريق ليس للعرب مثله . وإذا اعتز العرب بالإسلام ، فقد أسلمت هذه الشعوب أيضًا ، وصارت لها فى الحياة الإسلامية مشاركةٌ ذات بال .

ولم تفتأ الشعوبية تمهد لسياستها بتعبئة وجدانية للرأى العام ، واحتاجت إلى الشعراء والكتاب يقومون لها بهذه التعبئة ، ففتحت لهم خزائن المال ثمنًا للتأييد والنصرة ، والدعاية لخطتها وترويج مبادئها .

وحمل نفر من الشعراء والكُتاب هذه الدعوة ، ينفذون بها إلى عقول العامة ووجدان الجماهير .

ولم يكن عليهم من حرج سياسى ، فالدولة العباسية صنيعة الموالى من الفرس .

حدّث « بشار » — وأصله من فارس — عن نفسه قال : « دخلت على المهدى فقال لى : فيمن تعتد يا بشار ؟ فقلت : أما اللسان والزى فعربيان ، وأما الأصل فأعجمى ، كما قلت فى شعرى :

ونُبِّئْتُ قومًا بهم جُنَّةٌ ... يقولون : من ذا ؟ وكنتُ العلَمْ
ألا أيها السائلى جاهداً ... ليعرفنى ، أنا أنفُ الكرم
نمت فى المكارم بى عامرٌ ... جدودى ، وأصلى قريش العجم! »

ثم تبرأ بشار ، ولابد أن كثيراً غيره تبرءوا كذلك ، من ولاء العرب ، بعد أن لم تعد بهم حاجة إلى هذا الولاء .

ومد لسانه يعيرُ العرب ويغض من ماضيهم ويُذكرهم بخشونة بداوتهم ، فى مجلس أحد ساداتهم . يروون « أن أعرابيًا دخل على ابن ثور السدوسى بالبصرة ، وبشار فى مجلسه ، فسأل الأعرابى : من الرجل ؟

قيل له : شاعر . فعاد يسأل : أمولى هو أم عربى ؟ أجابوا : بل مولى . فقال الأعرابى : ما للموالى والشعر ؟ فسكت بشار هنيهة مغضبا ، ثم استأذن أبا ثور وأنشد :

سأُخبِرُ فاخرَ الأعراب عنى ... وعنه ، حين تأذن بالفخار
أحين كُسِيتَ بعدَ العُرْىِ خزًّا ... ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا ابن راعية وراع ... بنى الأحرار ؟ حسبُك من خسار !
وكنتَ إذا ظمئتَ إلى قراح ... شَرِكْتَ الكلبَ فى ولغ الإطار
تريد بخطبة كَسْرَ الموالى ... ويُنسيك المكارمَ صيدُ فار !

وقال مفاخراً بأصله الفارسى منفسًا عن حقدٍ طال كبتَه أيامَ الأموية :

هل من رسولٍ مخبر ... عنى جميع العربِ
من كان حيًّا منهمُ ... ومن ثوى فى التُّرُبِ
بأننى ذو حسب ... عالٍ على ذى الحسب
جَدِّى الذى أسمو به ... كسرى ، وساسانُ أبى
كم لى وكم لى من أب ... بتاجِه معتصبِ
لم يُسقَ أقطابَ سقى ... يشربها فى العلب
ولا أتى حنظلةً ... يثقبها من سَغبِ
ولا حَدَا قطُّ أبى ... خلفَ بعير أجرب

وبشار هنا ، لا يسجل غزو الشعوبية ، بقدر ما يسجل ردّ الفعل لما كان من اضطهاد الموالى فى العصر الأموى ، ويسجل معه الانتقال الخطير فى الأوضاع الاجتماعية للدولة الإسلامية . أما الغزو الحقيقى ، فبدت حملاته متأخرة ، حين استرد الفرس أنفاسهم بعد الصدمة التى تلقوها من « أبى عبد الله السفاح » ، بمقتل زعيمهم « أبى مسلم الخراسانى » .

وكان الأدب سبيلهم إلى استهواء العامة ، وكان البذل السخى وسيلتهم إلى استهواء الشعراء ، من أمثال مروان بن أبى حفصة ، وأبى نواس وأبى العتاهية . ومسلم بن الوليد ، والعتابى والرقاشى وأشجع السلمى .

ولعل تاريخنا الأدبى لم يع من مدائح الشعراء فى أسرةٍ قدرَ ما وعى منها فى أسرة البرامكة التى بلغ النفوذ الفارسى بها ذروته .

وشاعت قصص أسطورية عن كرمهم وبذلهم ونبلهم ، وتغنى شعراؤهم بحمدهم ، حتى جاز لبعض مؤرخى الأدب أن يسموا تلك الحقبة : عصر البرامكة .

ومن يقرأ مدائح الشعراء فيهم ، يتساءل فى عجب : أين خلفاء البيت العباسى ، والشعر يغنى للبرامكة قولَ أبى نواس :

بفضلِ بنِ يحيى أشرقت سبلُ الهدى ... وأمّنَ ربى خوفَ كلِّ بلادِ

وقولَ مسلم بن الوليد :

تساقَط يمناه ندًى ، وشماله ... ردًى ، وعيونُ القول منطقُه الفَصْلُ
جرى مذ حواه المهدُ فى شأوِ جعفرٍ ... إلى غايةٍ يتلو المثالَ الذى يتلو
أناف به العليـاءَ يحيى وجعفرٌ ... فليس له مِثلٌ ، ولا لهما مثل
فُروعٌ أصابت مغرسًا فتمكنتْ ... وأصلا ، فصارت حيث وجَّهَها الأصلُ

وقولَ « أشجع السلمى » :

ذهبت مكارمُ جعفرٍ وفعاله ... فى الناس مثلَ مذاهبِ الشمسِ
فإذا تراءتـه الملوك تراجعـوا ... جهد الـكلام بمنطقِ الهمسِ

* * *

يريـد الملوكُ مـدى جعفـرٍ ... ولا يصنعـون كما يصنعُ
وليس بأوسعِهم فى الغـنى ... ولـكن معـروفَـه أوسِـع
تـلوذ المـلوك بأبـوابـه ... إذا نالهـا الحدَثُ الأفظـع

وقولَ آخر :

ويفرح بالمولود من آلِ برمـكٍ ... بُغاةُ الندى والسيفُ والرمحُ ذو النصل
وتنبسط الآمـال فيـه لفضله ... ولا سيما إن كان من ولدِ الفضلِ

وآخر :

سألتُ الندى : هل أنت حر؟ فقال : لا ... ولـكننى عبدٌ ليحيى بن خالـد
فقلت : شراءٌ ؟ قال : لا ، بل وراثةٌ ... توارثنى من والـدٍ بعد والدِ

وراثٍ يرثى « محمد بن يحيى البرمكى » :

سألت الندى والجود : مالى أراكما ... تبدلتما عزًّا بذلٍّ مؤبدِ
وما بال ركنِ المجد أمسى مهدماً ... فقالا : أُصبنا بابن يحيي محمد
فقلت : فهلا متّما بعد موته ... وقد كنتما عبديه فى كلِّ مشهد
فقالا : أقمنا كى نُعزَّى بفقده ... مسافةَ يوم ، ثم نتلوه فى غد

* * *

وتسأل ما سر هذا الإغراق فى المدح ؟ وعم كان يصدر هؤلاء الشعراء فيما يقولون ؟ فيجيبك منهم مجيب :

ما لقينا من جود « فضل بن يحيى » ... ترك النـــاس كلهم شعراء
علّم المفحَمين أن ينظموا الأشـ ... ـعارَ منـــا ، والباخلين السخاء !

مُسجلاً بمثل هذا الجواب ، أن الباب الذى فتحه « بنو أمية » لم يُغلق ؛ وأن الانحراف الفنى الذى ظهرت أوائله فى إمارتى الحيرة وغسان ، ورسخت أصوله فى البلاط الأموى ، استشرى فى العصر العباسى ، حين احتاج صراع الأسر والأحزاب على السلطة والنفوذ ، إلى ألسنة هذا الصنف من الشعراء الدعاة المأجورين .

وخاض الأدب صراع المذاهب ، فى ذلك العالم الواسع العريض المائج المزدحم ، وكان سلاحًا فى معترك الطوائف والأحزاب والطبقات والملل والنحل ، لكن أكثر تراثه قد ضاع فى الغمار ، فشعر الزنادقة طُوى إلا قدراً ضئيلاً أفلت من الضياع ، على أيدى مَن تصدوا للرد على الملحدين والزنادقة ، فحفظته كتبهم من حيث يدرون أو لا يدرون(١) . وشعر الصوفيين لم يجد مكانًا فى كتب الأدب ، ولولا أن كتب التصوف وطبقات الأولياء حفظته، لضاع فيما ضاع من آثار أدبية، لم يلتفت إليها النقاد ، لأنهم غُلبوا على أمرهم، فلم يحتفلوا إلا ببضاعة القصور ، ولم يهتموا إلا بما اتصل بالسياسة من قريب أو بعيد (٢).

وحسبنا أن نقرأ قولهم : إن « أبا تمام ، والبحترى ، أخملا فى زمانهما خمسمائة شاعر ، كلهم مجيد »(٣) لندرك فداحة الطغيان الأدبى ، الذى فرضه ذلك الوضع .

* * *

والأمر فى مصر والمغرب الأفريقى ، شبيه بهذا : دارَ الأدبُ فى فلك السياسة وازدهر منه فى البلاط الأموى بالأندلس ، والفاطمى بالمغرب ومصر ، ما يحظى بتشجيع الخلفاء . ولمعت فى الأفق نجوم المداحين والمتزلفين والمغامرين الذين اتصلت أسبابهم بالحكام أو خاضوا معترك السياسة ، حتى إذا غربت شمس الفاطميين ، أمسك الشعراء معازفهم ، التى غنّت للمعز الفاطمى :

ما شئتَ لا ما شاءت الأقــدار   فاحكم فأنت الواحــد القهــار

وراحوا يغنون للأيوبيين من بعدهم :

ألستُم مُزيلى دولةِ الكفر من بنى   عبيدٍ بمصرٍ ؟إن هذا هو الفضلُ

زنادقــةٌ ، شــيعية ، باطنية   مجوس،وما فى الصالحين لهم أصل

---

(١) فى القسم الثانى من (رسالة الغفران) إضاءة لهذا الموقف ، واقرأ معه فصل الزندقة من كتابى (الغفران : دراسة نقدية) ط المعارف .

(٢) عالجت هذا الموقف بمزيد تفصيل فى مقال « رابعة العدوية : أدبية شاعرة » بالعدد الثانى من (حولية كلية البنات ، جامعة عين شمس) .

(٣) ابن رشيق : العمدة ١/ ٦٤ .

ويباركون جهاد الأيوبيين فى تطهير دولة الإسلام من الفاطمية :

وقد دنَّست منها المنـــابرَ عصبةٌ يعاف التقى والدينُ منهم ويأنَفُ

وصار الأمر إلى مثل هذا بعد أفول نجم الأموية بالأندلس ؛ فإذا الأدب « أكثره خدعة محتال ، وخلعة مختال ، جِدُّه تمويهٌ وتخييل ، وهزلُه تدليسٌ وتضليل »[١] .

(١) ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، ١/٧ ط جامعة القاهرة .

obeikandl.com

٢

مجرى التيار

« ثم جاء المتنبي ، فملأ الدنيا وشغل الناس »

ابن رشيق : العمدة

obeikandl.com

obeikandl.com

وإلى هنا نمسك عن متابعة سير الحياة بماضى أدبنا ، بعد الذى بان لنا من اتجاه مجراه مع الحياة العامة التى أفلتت أزمتها من ضبطِ القيادة ، فمضت فى سيرها إلى قضائها المحتوم .

ونقولها كلمةً موجزة : إن الأدب لم يكن لينجو من نُكر الحياة العامة التى أرادت له أن يتخلى عن عنصر الصدق الفنى الذى هو مناط فنيته وجوهر أصالته ، وعزلت الأدب عن مكانته الرفيعة من القيادة والسيادة ، ليكون ظلاً للسلطان وبوقاً للحكام، وداعيةً لكل مذهب وكل وضع ، وتجارةً لفئة من المرتزقة المأجورين. لاينفعلون بغير الرغبة أو الرهبة ولا يتأثرون وجدانيا إلا بخزانة الممدوح أو جاهه وسلطانه .

ولا عتاب ولا ملام ، فما كانوا غير بشرٍ يعيشون بمنطق عصرهم ويسايرون أوضاع دنياهم . . .

وأذلَّ الحرصُ أعناق رجالٍ ، كان المفترض فيهم لو أعانت الظروف وصحَّت الضمائر وسلم الوجدان ، أن يتولوا عن المجتمع الغافل أمانة القيادة الوجدانية التى تنكر الفساد وتتمرد على الظلم والطغيان ، وتطالب بتصحيح الأوضاع المريضة ، وتدعو إلى حياة أفضل . . .

لكن التيار جرفهم ، فلم ينج منهم من محنة المصادرة الوجدانية غيرُ أديبٍ تحرر — راضيًا أو كارهًا — من إغراء المادة وجاذبية الجاه ، وتخلص من أغلال الرغبة والرهبة ، فلم يرض ، أو لم يستطع ، أن يكون داعيةً لطاغية أو مطرب قصر أو نديم سلطان، أو تاجراً يبيع بضاعته لمن يدفع الثمن، كائنًا من كان ...

أديب مثل « ابن بسام الأندلسى » الذى عفَّ عن المورد الآسن ، ضنًّا بنفسه على الذلة والهوان . فعكف على تأريخ الأدب الأندلسى وتدوين (ذخيرته) الفنية ، وترك صناعة الأدب لمن يعرفون من معاصريه أساليبَ الاتجار بها ، وقال فى ذلك :

« ومع أن الشعر لم أرْضَه مركباً، ولا اتخذتُه مكسباً ، ولا ألِفتُه مثوى ولا متقلباً ، إنما زُرته لماماً ، ولمحته تهمُّماً لا اهتماماً، **رغبةً بعز نفسى عن ذله** ، وترفيعاً لموطئ أخمصى من محله، فإذا شعشعتْ راحُه لم أذُقْه إلا شميما،ولا كنتُ على الحديث

إلا نديماً . . ومالى وله ، وإنما أكثرُه خدعة محتال وخلعة مختال . وحقائق العلوم أولى بنا من أباطيلِ المنثور والمنظوم . . . »[1] .

ومثلُ « أبي العلاء » السجين الحر ، والمقيد الطليق ، والضرير البصير الذى عاش حر الفكر والوجدان حي الضمير ،وقاوم فى بسالةٍ تقرب من الاستشهاد، مغرياتِ الحياة الدنيا ، وجاذبيةَ السلطان ، ونوازع النفس ، كى تسلم له حريته . . .

وبحُريتِـه التى اشتراها بكل ما يطيق ، ورضى فى سبيلها بالعزلة والحرمان ، استطاع أن يواجه الطغاة والنفعيين والمنافقين ، فى جرأة باسلة . . .

فماذا لقى من مؤرخى الأدب ونقاده ؟

اتهموه فى عقيدته ودينه ، وجحدوه شاعرا ، وأنكروه مفكراً .

وحُجِـب لمدى أجيال ، عن مكانه بين كبار الشعراء . .

ولا عجب ، فالمقاييس التى احتفت بشعراء المديح ، وأبواق الأحزاب،حيث لا مجال للصدق الفنى والحرية الوجدانية ، لا يمكن أن تعترف بشاعرٍ وَجَدَ نفسَه، ووَعَى ذاته ، واعتز بكرامة عقله وفكره ولسانه فلم ينزل عنها لمشترٍ ، ولم يساوم عليها فى سوق النفعية والنفاق ، فبلغ قمة الذاتية الاجتماعية ، حين نطق بلسان الجماعة ، وتمرد — نيابة عنها — على الطغيان والنفاق والرق المادى والمعنوى ، وضرب لنا مثلاً رائعاً فذًّا لجبرية الالتزام فى الأدب ، ورسالة الأديب الذى لا يفقد وعيه فى دوامة الإعصار ، ولا يخطئْ طريقه فى داجى الظلمات، ولا تغفل بصيرته والناس من حوله نيام !

• • •

أما هذا « المتنبي الذى ملأ الدنيا وشغل الناس »[2] فى القرن الرابع الهجرى وما تلاه من قرون تصدع وانحطاط ، فما كرهوا له أن يترك صحبة الأمير العربى البطل « سيف الدولة » بعد أن أفرغ عليه مدحه ، ونال ما نال من عطائه :

أســيرُ إلى إقطاعِــه فى ثيابِـه على طرفه، من داره ، بحسامِـه !

---

(١) الذخيرة: ١/٧ . (٢) ابن رشيق : العمدة ١/٦٤ .

ليمضى إلى كافور الإخشيدى بمصر ، يعرض عليه بضاعته :

قواصد كافور ، توارك غـــير ومن قصد البحر استقل السواقيا

ثم ألح عليه فى دفع ثمن البضاعة ، فلما ماطله « كافور » — عن فهم ثاقب لنفسية هذا الشاعر وخلقيته — شكا إليه ضارعاً متذللا :

أبا المسك هل فى الكأس فضلٌ أناله فإنى أغنى منذ حين ، وتشرب !

حتى إذا يئس منه ، تسلل هاربًا من مصر ، وهو يلعنها ويقذف حاكمها بسباب بذىء .

ولقد بلغه أن « المعز لدين الله الفاطمى » بالمغرب ، يستقبل الشعراء ويجيزهم على مدحه ، فشدَّ رحاله يومًا إليه بعد أن أعد قصيدة عصماء ، فى مدح الأمير المفتدى ! وسمع بالخبر « أبو الحسن محمد بن هانئ » شاعر المعز ، فأزعجه أن ينافسه المتنبى على حظوته لدى مولاه ، وخرج فى زى أعرابى فقير على راحلة هزيلة ، وأمامه شاة عجفاء . وسار يترصد المتنبى فى طريقه حتى لقيه على مرحلة من قابس ، فدار بينهما هذا الحوار ، أنقله بنصه من « شذرات الذهب »[1] :

— من أين أتيت يا أعرابى ؟

— من عند الملك .

— فيم كنت عنده ؟

— امتدحته بأبيات فأجازنى هذه الشاة !

— ما قلت فيه ؟

— قلت :

ضحك الزمان وكان قِدْماً عابساً لما فتحتَ بعزم سيفك قابسا

أنكحتَها بِكراً وما أمهرتَها إلا قَنَاً ، وصوارماً ، وفوارسا

من كان بالسمْرِ العوالى خاطباً فُتِحت له البيضُ الحصون عرائسا

قالوا : « فتحير المتنبى وأمر بتقويض خيامه ، وآلى أن لا يمتدح ملكا هذه جائزتُه . على مثل هذا الشعر » .

---

(١) لابن العماد الحنبلى : ٣/٤٣ ط القدسى .

وجاز عنده أن ينظم قصيدة مدح فى « المعز » قبل أن يلقاه ، وهو يحسب أنه سيؤدى له " نسق الحساب مقدماً " — على حد تعبيره — ثم يمسك عن بيعها له . ويلتمس لها مشترياً آخر ، بينه وبين المعز أبعاد وأبعاد . . .

ومررنا بهذا الخبر ، جيلا بعد جيل ، دون أن تلفتنا دلالته الصريحة ، على أن « المتنبى » لم يكن يصدر فى مدحه عن انفعال بالممدوح ، أو يعنيه من أمره غير الثمن الذى يدفعه !

ومن قبل ، أنذر سيفَ الدولة ، إذا لم يدفع له الثمن الذى حدده ، أن يمضى بالبضاعة إلى سواه !

قال « أبو الفتح بن جنى » — فيما روى ابن العماد : « قرأت ديوان أبى الطيب عليه ، فلما بلغت قوله فى كافور القصيدة التى أولها :

أغالب فيكَ الشوقَ والشوقُ أغلَبُ وأعجب من ذا الهجرِ ، والوصلُ أعجبُ

حتى بلغت إلى قوله :

ألا ليت شعرى هل أقول قصيدةً ولا أشتكى فيها ولا أتعتب
وبى ما يذود الشعرَ عنى أقلُّهُ **ولكن قلبى يا ابنةَ القوم قُلَّبُ**

فقلت : يعز علىّ أن يكون هذا الشعر فى مدح غيرِ سيف الدولة .

فقال : حذرناه وأنذرناه فما نفع ، ألستُ القائل فيه :

أخا الجود أعطِ الناسَ ما أنت مالك ولا تعطينَّ الناسَ ما أنــا قائلُ

فهو الذى **أعطانى كافوراً** ، بسوء تدبيره وقلة تمييزه! »[1]

ومرت بنا هذه الأخرى ، دون أن نلتفت إلى قوله إن سيف الدولة أعطاه لكافور ! كأنما الشاعر شىء يُعطَى ! !

ودون أن نقف لحظة عند شواهد كثيرة من شعره ، صارخة بحساسيته العجيبة للدرهم والدينار ، كقوله فى قصيدة « شعب بوان » وهى من النصوص المختارة لأبنائنا فى الصف الثانى الثانوى [2] :

---

(١) شذرات الذهب : ٣/١٥ .

(٢) كتاب الأدب والنصوص ط وزارة التربية والتعليم بمصر : ١٩٥٩ .

وألقى الشمسُ منها فى ثيابى دنانيراً تفر من البنـــان !

ونراها لهم آية ، ومعاذ الفن الأصيل أن تكون قطع الضوء المتسللة من بين غصون الشجر ، فى تألقها ودفء حرارتها ورعشة حيويتها ، دنانير جامدة باردة ، يشقُّ على المتنبي أن تفر من البنان !

ومثل قوله فى عتاب سيف الدولة ، وهى أيضاً من النصوص المقررة على طلاب الصف الثانى [١] :

بَليت بِلى الأطلال إن لم أقف بها وقوفَ شحيحٍ ضاع بالترب خاتمُهْ

ونراها آية ، دون أن نسأل : أين الوقوفُ بالأطلال ، فى غشيةٍ من شجَن الذكريات ، من هذا الشحيح ضاع خاتمه فى الترب ، فهو يفتش عنه ، بملء يقظته ووعيه وحرصه ؟ !

بل دون أن نلفتهم إلى هوان موقفه على مائدة كافور الإخشيدى يغنيه وهو يشرب ، مستجدياً فضلة كأسه :

أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله فإنى أغنى منذ حـين وتشرب !

ولا ننكر على « المتنبي » عبقرية النظم ، لكن المنكر أن نتلو « آياته » مسحرين مأخوذين بفتنة عبادة الأبطال ، فيغيب عنا من عثراته وسقطاته ما لم يغب عن أحرار النقاد القدامى .[٢] والأفدح نكراً ، أن يخمل فينا شاعراً مثل « أبى العلاء » جديراً بأن يأخذ مكانه فى حياتنا الطامحة إلى الوجود الكريم ، المكبرة لمكان الفن فى الحياة : سيادة وقيادة !

لكن ما الحيلة . والمتنبي قد ملأ الدنيا وشغل الناس فى القرن الرابع وما تلاه ، فليظل أبداً ملء دنيانا ومشغلة أجيال الناس منا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

---

(١) ص ١١٤ من كتاب الأدب والنصوص ط وزارة التربية ١٩٥٩ .

(٢) اقرأ كتاب (الإبانة عن سقطات المتنبى ، للعميدى) وقد نشرته دار المعارف بالقاهرة سلسلة الذخائر .

وأقول مرة أخرى عن القيم الأدبية :

لقد شاءت الظروف أن يتصدى رجال أئمة من السلف الصالح ، لحماية العربية ، فاستنقذوا تراثها الأدبى من الضياع ، حفاظاً على مقومات وجودهم وصوناً للسان الأمة ولغة القرآن الكريم ، من طغيان العُجمة ، وغزو الشعوبية .

فمن عهد مبكر ، أدرك سلفُنا أن الإسلام هو سر وجود هذه الأمة وبقائها ، وأن لواءه هو الذى جمع شعوبها من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، وأعطاها مع وحدة العقيدة وحدة اللسان التى هى مناط التقارب فى الفكر والعقلية وفى الوجدان العام والمزاج المشترك .

وفى مهب التيارات الوافدة ، ندب رجالٌ منهم أنفسهم لحماية لغة القرآن الكريم فعكفوا على جمع تراث العربية من الفن القولى ، لما له من ارتباط وثيق بالدين . فنشطت حركة الجمع والرواية والتدوين ، وشد الرواة المتقدمون رحالهم إلى البادية ، ليجمعوا الشعر من القبائل ، ويأخذوا من أفواه الأعراب الذين لم تفش فيهم العجمة ، ما وعت ذاكرتهم من تراث الآباء والأجداد .

وعكف الدارسون على هذا التراث الغالى يأخذون منه معجم ألفاظ العربية ، ويميزون نحوها واشتقاقها وأساليبها البيانية ، وخصائصها فى التعبير والأداء .

وآخرون منهم ، اختصوا بدراسته ، فشغل فريق بشرح ألفاظه وتفسير غريبه ، واهتم غيرهم بتذوقه ونقده . .

وكانت الحركة فى الأصل إسلامية ، يُراد بها خدمة القرآن الكريم وتوجيه إعرابه وفهم أسرار إعجازه ، ولذلك شارك فيها عدد كبير من العلماء المسلمين غير العرب ؛ أصَّلوا علوم العربية ، فى النحو والبلاغة والنقد ، بعقلية غذّتها روافد ثقافية من معارف الهند والفرس ، وعلوم اليونان والرومان وغيرها مما نقل المترجمون إلى العربية .

وإلى جهود الرواة وعلماء العربية فى القرنين الثانى والثالث ، ندين بما جمعوا من تراث العربية الذى يصون أصالتها .

وإليهم كذلك ، يعود ماراج فينا من المقاييس النقدية والأحكام الأدبية ، التى لم

يُبْلِيها كرُّ الغداة ومر العشي . وما كان ذنبهم ، أن خضعوا لمنطق عصرهم ومزاج بيئتهم وعقلية مجتمعهم ، فكلٌّ مُيَسَّر لما خلق له .

وقد روجتْها فى دنيانا ، عصورٌ محكومة بمثل تلك الأوضاع ، وأخملنا ما أخملت من قيم وأحكام غيرها لأحرار النقاد ، كما أخملت أحرار الشعراء والكتاب ممن نجوا من المصادرة الوجدانية .

* * *

وبقدر ما نعتز بما صانوا لنا من تراث العربية ، نحتاج إلى إعادة النظر فيما أصدروا من أحكام راجت فينا ، وما وضعوا من ضوابط وموازين وما أخملوا من من قيم فنية لم يسفها عصور خلتْ .

وإذا لم يكن فى طاقتى أن أستقرئ هنا كل هاتيك المقاييس والأحكام التى قوّموا بها تراثنا الأدبى ، وأعرضها على هذا التراث لأحتكم إليه فيه ، وأتتبع أثرها فى دراستنا الأدبية المعاصرة ، فلعل دراسة مفردة لبعض القضايا النقدية فى فنون الأدب ، يمكن أن تكشف عما شاب أحكامَهم من خطأ أو قصور وتبين مدى حاجتنا إلى فهم تراثنا الأدبى بعقلية متحررة من سيطرة القيم المتخلفة من العصور الخالية[١] .

* * *

ولعل هذه المعاناة التى تفرضها علينا أمانةُ وجودنا ، تصل بنا إلى غاية الشوط المتاح لهذا الجيل من الدارسين ، فنعكف على التدبر الواعى لكتاب العربية الأكبر ، ونعيد النظر فيما خلف لنا السلف من أقوال وتأويلات تركت أثرها فى الفكر الإسلامى والذوق العربى ، وقد تكون حجبت عنا أسرار البيان العربى فى قمة أصالته وعز نقائه وذروة إعجازه .

وذلك ما يشغلنى منذ سنين ، فيما أدرس من (التفسير البيانى للقرآن الكريم)[٢] وأقصى ما يتعلق به أملى فى هذه المرحلة من حياتى العلمية ، هو أن أقدم بإذن الله حصاد العمر ، كتابًا فى (الإعجاز البيانى للقرآن الكريم) .

فاللهمّ يسّر وأعِنْ ....

---

(١) انظر « المرثية الجاهلية » للدارسة . فى العدد الأول من حولية كلية البنات بجامعة عين شمس .

(٢) ظهر منه جزءان ، نشرتهما دار المعارف بالقاهرة (١٩٦٢ : ١٩٦٨ ومنه كذلك كتاب « مقال فى الإنسان : دراسة قرآنية » المعارف ١٩٦٩ .